معالم المنهج الأزهري في تدريس العلوم الإسلامية[1]

بقلم

أ.د/ عبد الفتاح عبد الغني العواري

عميد كلية أصول الدين- القاهرة

جامعة الأزهر

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

وبعـدُ:

فإنَّ من منة الله تعالى عليَّ أن أشارك معكم في هذا المؤتمر العلمي المقام بجامعتكم الموقرة، متحدثًا إليكم عن أشرف مطلوب، وأجل مرغوب، وأعظم موهوب، أتحدث إليكم عن شرف الدهر، ومجد العصر، ووسام الفخر، وتاج الشرف لكل قطر، فخار الزمان، وإكسير الأمن والأمان، وضمانة السعادة والاطمئنان! أتحدث عن العلم ومناهج تعليم الدين الإسلامي.

ولا يشك أحدٌ ولا يتمارى أنَّ مقام العلم والتعلم مقام لا يُجارى، وميدان سبقٍ لا يُبارى، وهل بُنيت أمجادٌ وشُيِّدت حضارات عبر التاريخ إلا على دعائمه وركائزه؟! وهل سادت أمة بغير التعلم؟!

ومن المعلوم أنَّ الأزهر الشريف هو الهيئة العلمية الإسلامية الكبرى

---

(١) كلمة ألقيتها في مؤتمر جامعة استرازبورج بباريس- فرنسا- ممثلًا للأزهر الشريف في الفترة من ١٧ نوفمبر إلى ١٩ نوفمبر ٢٠١٥م.

التي تقوم على حفظ التراث الإسلامي وتجليته ونشره، وتحمل أمانة الرسالة الإسلامية إلى كل الشعوب، وتعمل على إظهار حقيقة الإسلام وأثره في تقدم البشر، ورقي الحضارة، وكفالة الأمن والطمأنينة وراحة النفس لكل الناس في الدنيا والآخرة.

وقد انتشر أبناؤه في مشارق الأرض ومغاربها كالنجوم، روَّادًا يحملون العلم إلى كل صقع بعيد، فوسع الله بهم رقعة الثقافة، وأنار بجهودهم آفاقًا أضاءوها بسنا الحنيفية السمحاء.

الأزهر هو الأزهر؛ شرع إلهي، وميراث محمدي، محفوظ بحفظ ما فيه، لأنه حوى القرآن وما فيه من فنون.

ترفرف فوقه روح صاحب السنة؛ إذ فيه سنته النبوية وعلماء أمته الذين هم ورثته وخلفاؤه، فهو مكانُ نظرِ الله تعالى وعنايته، وموضع الذين استشهد بهم على وحدانيته، **{شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ۚ لَا إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ}**(١).

وقد جعله الله تعالى موضع التفقه في الدين، وإليه الهجرة والنفرة لتحصيل العلم من علمائه وشيوخه. وأروقتُه وأعمدتُه خير شاهد على ذلك عبر الأزمنة والقرون، وما عرفت جامعات العالم أستاذية الكرسي العلمي إلَّا من خلال كراسي شيوخه التي كانت يلتف حولها الطلاب في رحاب الأزهر، وبه الإنذار للشعوب والأمم، ولا يخلو شعب من الشعوب إلا وفيه أشبالُه أُسود، عمائُهم تيجانهم، وعدتُهم إيمانهم، وما من خير إلا وهم قادُته

---

(١) سورة آل عمران، الآيتان (١٨، ١٩).

والداعون إليه، ففي الجهاد هم السابقون، وفي الآراء هم المفكرون، ارتضاهم الله حملة لدينه، وأئمة لعباده، ومرشدين لخلقه، فهم مصابيح الأمم وأقمار الشعوب.

لا يضل شعبٌ وفيه منهم عالم، فهم الصادعون بالحق على المنابر، وهم الخطباء في النوادي، والكاتبون في الصحف والمجلات، أقوالهم كالأسنة تقطع كل قول ضال، وتزجر كل منافق، وتهدي كل حائر، وتبين الغوامض من الأمور، والمشكلات من المسائل.

فبات مؤكدًا عند التاريخ أنَّ الأزهر الشريف هو الأمين على هذا الدين، والمدافع عن ذاتيته، والسادن لكرامة شريعته، ولقد عقد الله القلوب على محبته، وعلَّم الشعوب التوجه إليه، وأذهب عن أهله الحزن، وبارك فيه وإن تقلبت السنون.

*** أيها السادة:**

في رحاب الأزهر الشريف تدرس العلوم الشرعية كالفقه وأصوله، والتفسير وعلومه، والحديث، والعقيدة، والفلسفة، والمنطق، وعلم آداب البحث والمناظرة، والملل والنحل، والتصوف والأخلاق، وعلم الاجتماع، ومقارنة الأديان وتاريخها، والاستشراق والنظم، وفن الخطابة وأنواعها، وتدرس العلوم العربية كالنحو والصرف والبلاغة، ويدرس التاريخ والحضارة، وبجانب ذلك لا يغفل الأزهر دراسة علوم الدنيا كالفلك، والطب، والقانون، والكيمياء، والفيزياء، والرياضيات، واللغات المتعددة التي هي وسيلة التواصل الحضاري بين الثقافات المختلفة، وغير ذلك، وإن دل ذلك على شيء فإنَّما يدل على جمع الأزهر بين علوم الدين وعلوم الدنيا.

واسمحوا لي في هذه العجالة أن أعرض على حضراتكم «معالم المنهج الأزهري»، فلقد قام المنهج الأزهري على عدة مرتكزاتٍ بيانها فيما يلي:

أولاً: اتصال سنده رواية ودراية:

من خصائص المنهج الأزهري أنَّ علومه ومعارفه متوارثة منقولةٌ، متصلةُ الإسناد يتلقاها كل جيل عن الجيل الذي قبله، بإسناد موصول وفَهْمٍ متسلسل، ولا يتصدر أحد من أبناء ذلك المنهج إلا بعد التلقي والصحبة الطويلة للعلماء، إلى أن يقع منهم الإذن والإجازة له بالرواية وبالتدريس والتأليف وتعليم العلم، وإذا سألت أحدهم عن مشايخه ذكر لك عددًا منهم، وإذا سألته: كم صحبت شيخك أو شيوخك؟ ذكر لك أنه صحبهم زمانًا طويلًا، حتى فهم ووعى عنهم منهج الفهم، ومداخل المعرفة، تحقيقًا لما ورد: «يحمل هذا العلم من كل خلفٍ عدوله ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين»(١).

ولا شك أن منهجية التلقي والإجازة- تلقي التلميذ عن الشيخ وإجازة الشيخ للتلميذ- لها أهمية كبرى في انتقال الفهم الصحيح للإسلام من جيل إلى جيل، «ولولا الإسناد لقال من شاء ما شاء»(٢)، والسند من خصائص

---

(١) رواه البيهقي في سننه الكبرى (٢٠٩/١٠) حديث رقم (٢٠٧٠٠)، والطبراني في مسند الشاميين (٣٤٤/١) حديث رقم (٥٩٩)، وروى الخلال ومن طريقه الخطيب (٥٦)، والعلائي (ص٣٥) عن مهنا بن يحيى أنه سأل الإمام أحمد عن هذا الحديث: كأنه موضوع. فقال الإمام: لا، هو صحيح.

وصححه الخطيب البغدادي في كتابه الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع.

(٢) رواه مسلم في مقدمة صحيحه (١٥/١)، وروى أيضًا بإسناده عن عبد الله، قال: «بيننا وبين القوم القوائم». يعني الإسناد.

وروى أيضًا بإسناده عن ابن سيرين، قال: «لم يكونوا يسألون عن الإسناد، فلما وقعت

هذه الأمة.

ثانيًا: الجمع بين المنقول والمعقول ببصيرة ووعي:

يتميز المنهج الأزهري بالجمع بين النص الشرعي والعقل المتبصر، فلا يُهْمِلُ دَوْر العقل في فهم النصوص الشرعية واستنباط دلالاتها، وإدراك مقاصدها وغاياتها، كما لا يَهْدرُ قداسة تلك النصوص، بل يعلن أنَّ العقل كالبصر السليم، والقرآن والسنة كالشمس المنتشر الضياء، ولا غنى لأحدهما عن الآخر.

فهو لا يرضى أن تفهم النصوص فهمًا متحجرًا حرفيًّا ضيقًا يقوم على إلغاء دور العقل بحجة الانتساب المدَّعى إلى السلف الصالح، كما لا يرضى أن تُهْدر النصوص الشرعية الثابتة بالقرآن الكريم والسنة المطهرة بدعوى التجديد والتنوير المصطنع، بل ظل رجالات الأزهر- ولا يزالون- ينظرون بالعينين معًا: عين الوحي المنزل، وعين العقل المتبصر شعارهم: لا معاداة بين مقتضيات الشرع، وموجبات العقل.

وازن الأزهر بين مصادر التلقي والمعرفة، ووافق بين صحيح المنقول وصريح المعقول، وعالِمِ الغيب والشهادة، وإعمال النصوص ورعاية المقاصد واستجلاء القواعد، وحِكَمِ الشريعة وأسْرارِها، ووازن بين تحقيق المصالح ودرء المفاسد.

وحين غاب هذا المنهج الأزهري القائم على التوافق بين النقل والعقل ظهرت تيارات وافدة تحمل بصمات معادية للعقل، وأخرى تدَّعى

الفتنة، قالوا: سموا لنا رجالكم، فينظر إلى أهل السنة فيؤخذ حديثهم، وينظر إلى أهل البدع فلا يؤخذ حديثهم».

العقلانية؛ لكي تدخل على نسيج الإسلام حداثة منفلتة أو علمانية مرفوضة.

ثالثًا: الجمع بين الأصالة والمعاصرة:

يتميز المنهج الأزهري بمراعاة التراث الإسلامي الرصين والحفاظ عليه من جهة الانفتاح السديد على الثقافات الغربية من جهة ثانية، فمنذ عصور مضين حين كان صحن الجامع الأزهر يضج بالحلقات العلمية المتخصصة في علوم الإسلام، كان هذا الصحن- في الوقت نفسه- يبتعث بعض بنيه إلى أُوربا ينهلون من ثقافة العصر ومناهجه الحديثة، ولا يجدون غضاضة في التلاقح بينها وبين تراثهم الرصين، كما لا يجدون غضاضة في التفاعل الخصب بين الأصالة والمعاصرة، ولا يجدون تعارضًا بين روح الإسلام والتقدم الحضاري السديد.

كان رفاعة الطهطاوي على رأس أول بعثة إلى فرنسا سنة (١٢٤١هـ/ ١٨٢٦م)، ولم تخل أي بعثة إلى أوربا في عهد محمد علي من عدد كبير من الأزهريين حتى كان جلُّ طلاب الطب الأوائل في مصر من الأزهريين(١).

رابعًا: مراعاة حق التعددية الفكرية، واحترام الآراء، ووزنها جميعًا بميزان الشرع والعقل:

يتميز المنهج الأزهري برعاية حق التعدد، واحترام الآراء، وكفالة حق الاختلاف، وخير شاهد على ذلك تلك المذاهب المختلفة التي كانت- ولا تزال- تتجاور في أروقة الأزهر، والآراء المتعددة التي كانت- ولا تزال- تتحاور في فضاء الأزهر، والاجتهادات المتنوعة التي كانت- ولا تزال-

---

(١) يراجع: الأعمال الكاملة للشيخ رفاعة الطهطاوي، جمع د. محمد عمارة.

تتآزر في رحاب الأزهر دون أن يطغى بعضها على بعض، أو يبغي بعضها على بعض، بل يقف المنهج الأزهري من تلك التنوعات موقف الشيخ المهيب الذي يضبط اختلاف المذاهب، ويرجح بين تعدد الآراء ويوازن بين تنوع الاجتهادات؛ لكي يصل بها جميعًا إلى الجامع المشترك الذي يزيل التعارض ويقرب شقة الخلاف.

وهكذا كانت المدرسة الأزهرية- ولا تزال- تعج بآراء المذاهب الفقهية المختلفة، والمقارنة بينها بالدليل والحجة، كما لا تزال تلك المدرسة تكتظ بآراء الفرق الاعتقادية على تنوع اتجاهاتها؛ ليغرس المنهج الأزهري في عقول بنيه خصوبة الاختلاف وثراء التنوع، وما يؤديان إليه من اتساع الرؤية ورحابة الأفق، واحترام الرأي الآخر.

هذا المنهج الأزهري أدى إلى رحابة الأفق وقبول التعددية في الاتجاهات المختلفة في الموضوع الواحد، والموضوعات المختلفة، ومقابلة الرأي بالرأي، والحجة بالحجة، والبرهان بالبرهان.

وأدى كذلك إلى التوسط بين الآراء المختلفة ومحاولة الجمع بينهما، ففي مجال الفقه المقارن مثلًا- وكذلك في مجال أصول الفقه، وكذلك في مجال العقائد وغيرها- تتمتع الشخصية الأزهرية بالقدرة على المقارنات المتعمقة بين المذاهب، وهذه المقارنات تدرب الشخصية الأزهرية على عدم التسليم برأي ما لم يكن قائمًا على أساس سليم، حتى ولو صدر هذا الرأي من أستاذ يتمتع بشهرة واسعة في العلم الذي يدرسه، فالمبدأ الذي يحفظه الأزهري منذ صغره: «لا تعرف الحق بالرجال، ولكن اعرف الحق تعرف أهله»، ولقد حفظ التراث الأزهري قدرًا من المناقشات التي

كانت تثور بين الآباء الأساتذة والأبناء التلامذة.

فالقاضي عبد الجبار وابنه أبو هاشم كانا يختلفان في كثير من المسائل لدرجة أن الابن (أبا هاشم) كان يوقظ أباه من النوم في منتصف الليل لكي يراجعه في درس الصباح، ويختلف معه فيما تعلمه منه، ويرفض ما يرفض ويقبل ما يقبل كذلك حفظ لنا التراث الأزهري أن الشيخ بهاء الدين السبكي كان يرى رأيًا في شرح أحاديث كتاب (الموطأ) للإمام مالك، بينما رأى ولده تقي الدين السبكي رأيًا مخالفًا لرأي أبيه، فكتب كل منهما رسالة يعارض فيها رأي الآخر.. وهكذا.

وفي مجال العقائد نجد الطالب الأزهري منذ نعومة أظفاره يتعرف على آراء الفلاسفة وآراء المتكلمين من المعتزلة والماتريدية والأشاعرة والإمامية والزيدية، ويناقشها في ضوء النقل والعقل مناقشة مستفيضة مطولة ويضع ذلك كله في ميزان الحق والنصفة.

خامسًا: العناية بتحصيل علوم الآلة:

فهو منهج يعتني بتربية أبنائه على الإلمام والاستيعاب والتضلع في علوم الآلة من النحو والصرف والبلاغة بفنونها وأصول الفقه وعلوم الحديث وغير ذلك من العلوم التي تعين المتعلم وتؤهله وتمكنه من الخوض في فهم الكتاب والسنة عن معرفة ودراية وبصيرة مع السير في تلك العلوم على منهج معتمد يرتقي به الطالب من المقدمات إلى الدقائق وفي المختصرات إلى المبسوطات وشروحها وحواشيها.

سادسًا: الحوار الذي يسعى إلى تبادل وجهات النظر وإبداء الرأي والإقناع به في حل جميع المشكلات:

لقد شاءت إرادة الله تعالى أن يخلق الناس مختلفين في عقولهم، وتفكيرهم، ودينهم، وأخلاقهم، وأفعالهم، وإنَّ الواقع ليؤكد هذه المشيئة، فمن العلوم أنَّه لا يوجد اثنان على ظهر الأرض متحدين أو متطابقين في الشكل والملامح تمام التطابق، قد يتشابه بعض الناس من قريب أو من بعيد، ولكن من المستحيل أن يتطابق أحدهم مع الآخر، وأنَّ الاختلاف في الشكل وفي الطبع وفي الفكر هو القانون السائد بينهم، وأنَّ هذا القانون باق ولا يتغير إلى يوم القيامة، بل هو آية من آيات الله الدالة على قدرته، **{وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ}**(١).

وهذا ما يقرره القرآن الكريم في آياتٍ عدة وليس من العيب أن نختلف، وأن يزعم كلٌّ منَّا أنَّه على الحق، لكن لا بد من سماع الآخرين، فربما يكون عندهم ما ليس عندنا، فأفضل وسيلة للوصول إلى الحق هو الحوار مع الآخرين بالحكمة والمجادلة بأقصى غاية الإحسان كما يفيده أفعل التفضيل في قول الله تعالى: **{ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ}**(٢).

فالتنوع بين الناس وامتدادهم وتكاثرهم على ربوع الأرض لا يعني أن يتفرقوا أو تتقطع أواصرهم، كما لا يعني هذا التنوع أن يتصادموا ويتنازعوا ويلجأوا إلى استعمال القوة والعنف للسيطرة من أجل الثروة والقوة والسيادة وإنما ليتعارفوا، فللتعارف دور كبير في الحيلولة دون

---

(١) سورة الروم، آية (٢٢).
(٢) سورة النحل، آية (١٢٥).

وقوع حوادث العنف والنزاع والصدام وهو يكفل نسبة كبيرة من نجاح لقاءات التفاهم والنقاش والتحاور.

ولا شك أنَّ الحوار يهدف إلى استبعاد وإقصاء سبل التفكير في استخدام العنف أو الصدام أو الاعتداء، فهو يقرب الأفكار والمسافات وينسج أواصر التعارف والتقارب، ويتذكر بنو الإنسان أنهم أخوة في الإنسانية وأن وشيجة القربى وصلة الرحم تربط بينهم، **{ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا }**(١).

ومن خلال تلك المرتكزات التي قام عليها المنهج الأزهري يتجلى للعالم أجمع أنَّ الأزهر الشريف على استعداد تام للتواصل الحضاري مع ثقافات الأمم الأخرى، ولا يرى غضاضة في التأثر بها والتأثير فيها عملاً بالقول الكريم: «الحكمة ضآلة المؤمن أنَّى وجدها فهو أولى الناس بها»(٢).

كما يظهر للقاصي والداني أنَّ الأزهر يعمل على إكساب بَنِيه مهاراتِ التعامل مع الجمهور من خلال منهج الوسطية والاعتدال، على ضوء دراسته للقرآن الكريم والسنة النبوية، ويحرص على تنمية قدرة قاصديه على الفهم الصحيح والدقيق للنصوص، وعلى دفع الشبهات المثارة حول الإسلام من خلال النقد والتحليل، وتزويدهم بالمهارات المختلفة لتوظيف النصوص الشرعية في معالجة القضايا المعاصرة، وتمكينهم من المشاركة

---

(١) سورة النساء، آية (١).

(٢) ضعيف: أخرجه الترمذي (٥/٥١) رقم (٢٨٨٢)، وضعفه بلفظ: «الكلمة الحكمة ضالة المؤمن حيثما وجدها فهو أحق بها». وابن ماجه في سننه (٢/١٣٩٦) حديث رقم (٤١٦٩).

الإيجابية في حل مشكلات المجتمع والتفاعل المستمر مع الواقع المعاصر.

وفي الختام أقول:

إنَّ الأزهر الشريف يوضح بمنهجه الوسطي أنَّ دين الله تعالى جاء من أجل تحقيق عبادة الله جل شأنه، وتزكية النفس وتطهيرها، وعمارة الأرض، وهداية الأمم، وبناء الحضارة، وصناعة النهضة، حتى تكون الأمة الإسلامية رحمة للعالمين، كما كان النبي ﷺ رحمة للعالمين. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

□***